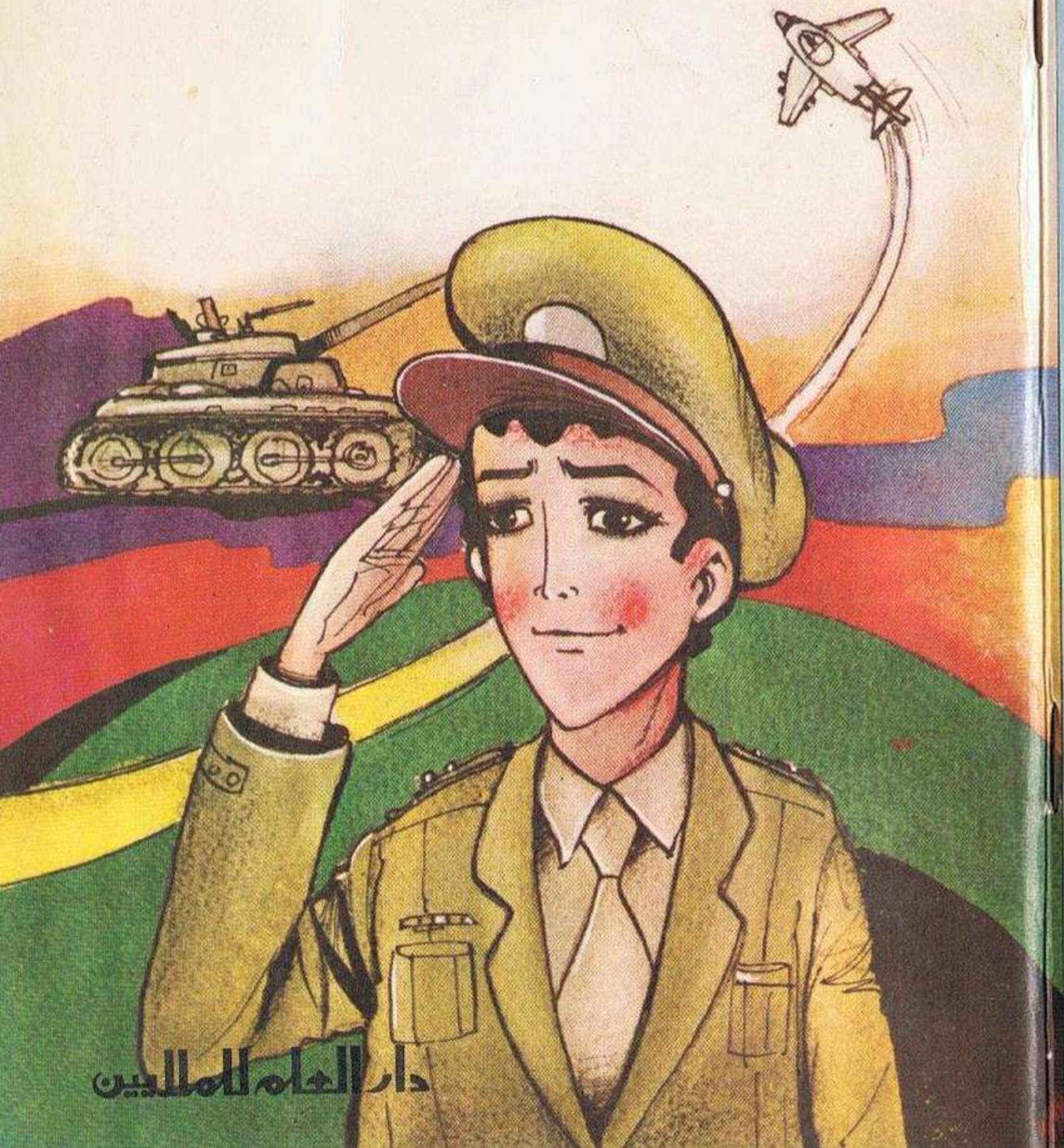
القائد الصغير



دار العلم للملايين

سلسلة

عبقريات مبكرة

صدر منها

- الطبيب الصغير
- الربان الصغير
- القاضية الصغيرة
- القائد الصغير
- الرياضي الصغير
- الموسيقار الصغير
- المهندس الصغير
- الممرضة الصغيرة
- المخترع الصغير
- لاعب كرة القدم الصغير

دار العلم للملايين

القائد الصغير

عبقريات مبكرة

دار العلم للملايين

دار العلم للملايين
صندوق البريد: ١٠٨٥
تلكس: 23166 MLAYIN LE
بيروت – لبنان ١٩٨٨

بقلم وريشة: طارق العسلي
إخراج وإشراف: المهندس طارف عثمان
تنضيد: شركة الحرف الالكتروني
تصوير وطبع: مطبعة نصر الله

١- رِحْلَةَ إلى القَرْيَة

كانت السيارة تَنْهَبُ الطريق الجبلي الوعر نهباً وهي تنطلق صعوداً.. ها هي القرية تبدو من بعيد بيوتها البيضاء الصغيرة ذات القرميد الأحمر..

على المقعد الخلفي جلست «سلمى» ذات الثلاثة عشر ربيعاً مع أخيها الصغير «ماهر» الذي يصغرها بثلاث سنوات، إنهما يتضاحكان ويتمازحان وصوتهما يكاد يَطْغى

على ضجيج محرك السيارة التي ما زالت تهتز وتقفز فوق الأحجار الصغيرة.

أما الوالد فقد جلس أمام مِقْوَدِ السّيارة بهدوءٍ ورزانة وإلى جانبه والدتها التي كانت تنظر إلى السماء وقد مال لَوْنُها إلى الاحمرار بعد أن قاربت الشمس على الغياب.. إنها تفكر وتحاول أن تقارن بين ضجيج المدينة وصَخَبِها وهوائـها المُلَوَّثِ، وبين وَداعةِ القرية وصفاء جوّها.

هذا عصفور يقف على أسلاك الكهرباء بريشه الرَّماديِّ المُزَرْكَش «يزقزق» بمرح. العصافير لا تراها كثيراً في المدينة.. العصفور الوديع المسكين لا مكان له في غابة الإسْمِنْتِ، إنَّه ضيفٌ غير مرغوب فيه.. هواء المدينة يخنقه ويقطع أنفاسه، وأشجارُها العارية تفضحه فتجعله عُرْضَةً لبنادق الصيادين الصغار الذين يتربصون بكل ما يتحرك، فيرمونه بوابِل من طلقاتهم، ويتباهون بصيدهم الصغير البريء الذي لا يغني من جوع.. كأنهم يفعلون شيئاً حسناً يستحقون التهنئة عليه... واستفاقت الأم من شرودها على صوت ضحكة عالية من سلمى،

فقالت وعلامات الانزعاج تبدو عليها:

– ما بكِ يا سلمى؟!.. لقد أتينا إلى هنا هرباً من ضجيج المدينة، ولكن يبدو لي أنك اصطحبت معك هذا الضجيج.. لماذا لا تصمتان قليلاً أنت وأخوك وتمتِّعان النظر بجمال القرية وهدوئها؟!

وصمتت سلمى وقد أخجلها تَأْنيبُ والدتها وقالت:

– المعذرة يا أمي.. الحقّ على ماهر.. إنه يقوم بحركات مثيرةٍ للضحك.. والتفتت الوالدة إلى الوراء وشاهدت ماهر وهو يقوم بحركات في وجهه محاولاً تقليد القِرَدَة. ولكن عندما واجهته نظرات والدته توقف فجأة وهو مرتبك وتظاهر بأنه يحكّ رأسه.. وحاولت الأم أن تمنع نفسها من الضحك وقالت:

– كفاك تهريجاً يا ماهر.. لقد لعبتما وضحكتما كفاية وآن لنا أن نتمتع بقليل من الهدوء.. أليس كذلك؟

وران الصمت على الجميع بينما كانت السيارة تواصل انطلاقها نحو الأعلى.. بعد قليل لاح من بعيد تَجَمُّعٌ من الجنود يسيرون بحركات منتظمة على جانب الطريق. كان

واحد منهم يسير أمامهم وهو يصيح بين الحين والحين ويشير إليهم بحركات سريعة، وقال ماهر بمرح:

- أبي.. أبي.. أنظر إلى هؤلاء الجنود!!.. إن ثيابهم جميلة..

وسألت سلمى:

- ماذا يفعل هؤلاء الجنود هنا؟ .. ومن هو هذا الذي يتقدمهم ويصيح بهم؟

ونظر الوالد إلى طرف الطريق.. كانت السيارة قد اقتربت من الجنود وأصبحت بمحاذاتهم وهم ما يزالون يسيرون بنفس الطريقة النظامية الرتيبة، وقال الأب مبتسماً:

- لا بد أنهم يقومون ببعض التدريبات الرياضية.. إنها ضرورية للجنود للمحافظة على لياقتهم البدنية..

- ومن الذي يسير أمامهم؟

- إنه القائد.. قائد المجموعة..

وسأل ماهر:

- وهل من الضروري أن يكون لهم قائد؟!

- طبعاً يا عزيزي.. إنهم يطيعون أوامره وينفذونها بحذافيرها وهو مسؤول عن تنظيم عملهم وتدريبهم أثناء السِّلْمِ والحرب.

- وأثناء الحرب؟ .. هل يمكنه أن يأمرهم بأن يفعلوا ما يريد؟

- ليس تماماً.. إنه يأمرهم بأن يفعلوا ما يريد ولكن حسب الأوامر التي يتلقاها هو من رئيسه الأعلى منه..

وفكرت سلمى قليلاً ثم قالت:

- ورئيسه الأعلى منه.. هل هو الذي يختار الأوامر؟

- حسب معلوماتي أن لكل ضابط ضابطاً أعلى منه، والأدنى رتبة ينفذ أوامر الأعلى رتبة منه.

قالت سلمى:

- هذا شيء محيّر.. إذن من يعطي الأوامر الرئيسية ومن الذي يختارها؟!

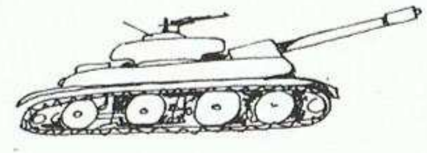
وهنا قال الأب:

- اسمعا أنتما الاثنين.. إذا كنتما تَوَدّان معرفة المزيد

من هذا الأمر فانتظرا إلى أن نصل إلى بيت عمكما «أنور».. إنه - كما تعلمان - كان ضابطاً في الجيش قبل أن يتقاعد، وهو يعرف عن هذه الأمور أكثر مني..

وكانت السيارة متوجهة في طريقها هذا إلى بيت عمِّ سَلْمى وماهر شقيقِ والدهما، حيث اعتاد أن يقضي أشهر الصيف في هذا المصيف الجبلي.

والعم أنور رجل هادىء ورزين يشبه والدهما في طِباعه ويبلغ من العمر سبعةً وأربعين عاماً، وقد قضى حياته ضابطاً في الجيش ثم تقاعد، وعَمِلَ في التجارة وأصاب شيئاً من النجاح حيث اشترى «فيلا» أنيقةً في الجبل يقضي فيها عطلة الصيف مع زوجته، ولم يكن لدى العم أولاد، ولذلك كان يحبّ وَلَدَيْ أخيه حبًّا كبيراً ويعتبرهما مثلَ أولاده تماماً، وقد دعا العم «أنور» أخاه وأسرته لقضاء يوم العطلة في «الفيلا»، وهكذا توجهت الأسرة إلى المصيف تلبيةً لدعوة العم.

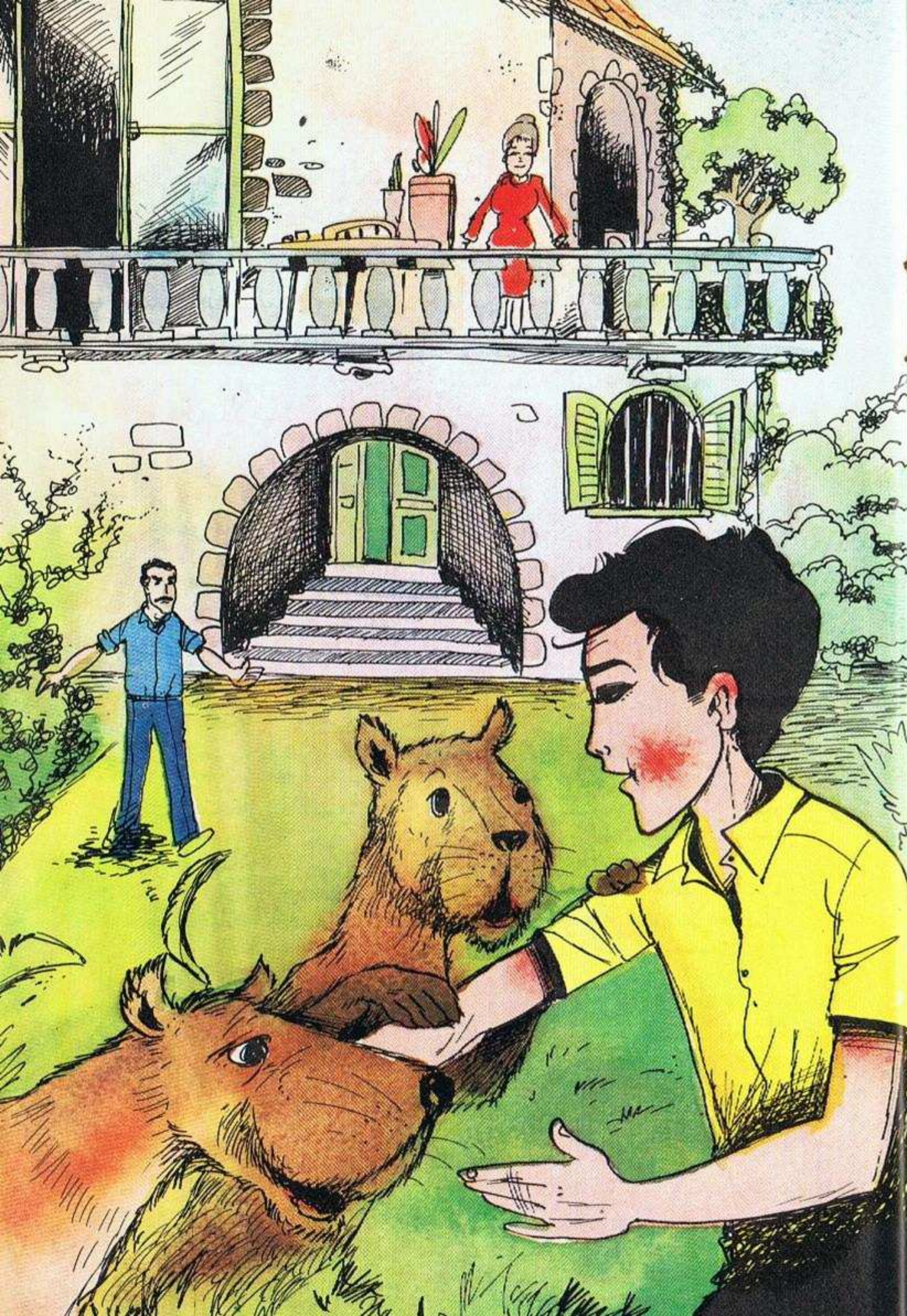


٢ - في بيت العَمِّ أَنْوَر

وصلت السيارة وتَوَقَّفَتْ أمام بابِ حديقة الفيلا، وَضَغَطَ الأب على «الزّمور» لِيُعْلِنَ عن وصول العائلة.. كان هناك كلبان كبيران يقفان أمام الباب وهما يهزان ذيليهما بمرح.. إنهما الكلبان «صقر» و«عنتر».. لقد اشتما رائحة سلمى وماهر ووقفا ينتظران فتح الباب ليقفزا عليْهما ويرحبا بهما كعادتهما.. ها هو العم أنور يُطل من الشُّرْفَةِ ويَصيحُ مُحَيِّياً:

- أهلاً بكم.. لحظة.. سأنزل وأفتح الباب..

وخلال لحظات نزل العم أنور وفتح بابَ الحديقة.. ولم ينتظر صقر وعنتر نزول سلمى وماهر من السيارة، بل أخذا يقفزان على باب السيارة وهما يعويان بمرح،



وبسرعة نزل ماهر وأمسك الكلبين وأخذ يُرَبِّتُ على رأسيهما وقال:

- كيف حالك يا عنتر؟ .. وأنت يا صقر؟ .. لا بد أنكما اشتقتما إليَّ.. أليس كذلك..

وأسرع العم يضم ولدي أخيه ويقبّلهما ويقول:

- هيا.. هيا بنا جميعاً إلى الداخل.. سيكون معك متسع من الوقت يا ماهر لملاعبة صقر وعنتر.. هيا بنا..

ودخل الجميع إلى «الفيلا» وجلسوا على الشرفة الأنيقة المطلة على الحديقة والمليئة بالزهور الجميلة وقالت زوجة العم:

- لقد اشتقنا إليكم كثيراً.. ألا تزورونا إلا إذا دعوناكم دعوة رسمية؟!

وضحكت الأم وهي تجيب:

- معاذ الله يا عزيزتي.. أنتما تعرفان مقدار محبتنا لكما وتعلق سلمى وماهر بكما.. ولكن كما تعلمين.. هناك أشغال أبي ماهر، ومدرسة سلمى وماهر بالإضافة إلى أعمالي المنزلية..

وقاطعتها زوجة العم مازحة.

- حسناً.. حسناً.. كفاكِ اعتذاراً.. الآن بدأت العطلة الصيفية ولم يعد أمامكم مبرر لطول الغياب، ولذلك فستقضون أسبوعاً في ضيافتنا..

وقال الأب:

- نحن موافقون.. ما رأي ماهر وسلمى بذلك؟

وسارعت سلمى بالقول:

- هه.. عظيم.. أنا أحب الطبيعة كثيراً وسنتسلى كثيراً هنا..

وقال ماهر:

- عمي.. هل سَتَصْحَبُني معكَ إلى الصيد؟

- طبعاً.. طبعاً يا عزيزي. وسنأخذ معنا عنتر وصقر أيضاً..

وضحك الجميع بمرح بينما قامت زوجة العم لإحضار القهوة، وقالت سلمى:

- عمي.. أريد أن أسألك سؤالاً.. ألم تفتقد حياة الجيش؟!

وفوجىء العم بالسؤال وقال:

- لقد قضيت في الجيش أعواماً طويلة.. طبعاً إني أفتقد هذه الحياة.. ولكن كما تعلمين.. لم أعد شاباً.. ولكن لماذا هذا السؤال؟!

- لقد شاهدنا منذ قليل جماعةً من الجنود يتدربون على الركض وتصورتك قائداً لهم..

- نعم.. هناك معسكر لتدريب الجنود في رأس الجبل.

وقال ماهر:

- هل قمت ببطولات أثناء حياتك في الجيش؟!

وشرد العم ببصره نحو الأفق وابتسم وقال:

- أعتقد أني قد أدَّيت واجبي على أحسن ما يرام.. ونلت بعض الأوسمة.. ولكن هناك رجالاً أفضل مني قاموا ببطولات عظيمة والبعض منهم اسْتُشْهِد أثناء تأدية الواجب..

وقال ماهر بحزن:

- للأسف.. إن البطولات محصورة بالكبار فقط..

نحن الصغار لا يمكننا أن نقوم بالبطولات..

- بالعكس يا عزيزي.. في بعض الأحيان يقوم الصغار ببطولات تفوق بطولات الكبار.. خاصة عندما يكون الوطن في خطر.. البطولات ليست وقفاً على عمرٍ أو جنسٍ معين.

وتدخل الأب قائلاً:

- عَمُّكما أنور كان واحداً من هؤلاء الأبطال الصغار يا أعزائي!!

ونظرت سلمى إلى والدها بدهشة وكأنها تحاول أن تقول بأنها لم تفهم كلامه، ولكن الأب واصل حديثه موضحاً:

- نعم... عمكما أنور كان بطلاً صغيراً.. هذه حكاية تسمعانها مني للمرة الأولى.. أتعرفان بماذا كانوا يُلَقِّبونَه؟.. كان اسمه القائد الصغير.. إني أذكر تماماً هذه الحادثة وسأترككُم مع العم أنور ليرويَها لكم.

وقال العم مبتسماً:

- أرجوك يا أبا ماهر.. لقد أحرجتني وأوقعتني في

ورطة.. إنها قصة قديمة ما عدت أذكر تفاصيلها تماماً.

- هيا.. هيا يا أخي.. لا تتصنع التواضع.. لا أعتقد أن ذاكرتك ستنسى حادثة مهمة كهذه.. إني أذكرها تماماً مع أني أصغرك بثلاث سنوات.. أعتقد أن ماهر في شوق لسماع هذه الحكاية.. أليس كذلك يا ماهر؟!

ورد ماهر بحماسة:

- نعم.. نعم.. أرجوك يا عمي.. أريد أن أسمع هذه القصة.

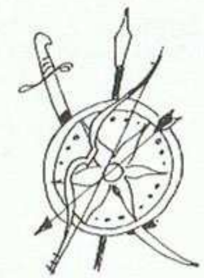
وقالت سلمى:

- لقد جعلتني أشعر بفخر كبير يا عمي مع أني لم أعرف ما هي القصة بعد، فأرجو ألا تُخَيِّبَ أملَنا.

وجال العم بنظره بين سلمى وماهر ووالدهما وصمت فترة ثم قال:

- حسناً.. لقد تغلبتم علي.. سأحكي لكم هذه القصة وأرجو أن تتخذاها عِبرةً لكما ولغيركما لكي تعرفا ما

أغلى الوطن وكم يتطلب الحفاظ عليه من تضحيات جِسام...



٣ - قصّةٌ قديمَة

اعتدل العم في جِلْسَتِهِ وشَرَدَ ببصره بين الحقول الممتدة أمامه محاولاً استرجاع ذاكرته ثم قال:

- حدثت هذه الحكاية يا أبنائي في عام ١٩٤٨.. كنت أبلغ من العمر في ذاك الوقت حوالي خمسة عشر عاماً.. كنا نسكن في مدينة بيروت، في حي بيروتي عتيق هو حي «المُصَيْطِبَة» وكان والدُنا - جدُّكما - كما تعلمان يعمل مدرساً للُّغة العربية في إحدى المدارس.. كنا نعيش

في هذا الحي عِيشةً متواضعة وفي سعادة وهناء، وكنا أنا ووالدُكما نذهب إلى مدرسة واحدة، لكني كنت أعلى منه بصفين لأني كما تعلمان أكبر منه..

والدكما الآن يبدو عاقلاً ورزيناً ولكن لو تعلمان كم كان في ذاك الوقت شقيًّا ومشاغِباً.. كان دائماً معي.. يذهب أينما أذهب، ويرافقني كظلي لأننا وحيدان في العائلة..

هذا الهناء الذي كنا فيه لم يدم وقتاً طويلاً، لأننا بعد حين لم يعد راتب والدِنا يكفي هذه العائلة الصغيرة، لأن تكاليف الحياة أصبحت أكثر، بينما راتب والدنا الشهري بقي على حاله. فَأُصِبْنا بضيق مادّي وأصبحت والدُتنا تحاول أن تقتصد في المصروف حتى نتمكن من الاستمرار في الحياة..

كانت ظروف بلادنا صعبة في ذلك الحين ولم يكن أمام والدنا أيُّ مجال لزيادة دخله، فبقينا على هذه الحال إلى أن أتانا الفرج في ذات يوم..

فقد افْتُتِحَتْ في مدينة «يافا» في فلسطين، إحدى

مدارس الإرساليات البريطانية، وكانت هذه المدرسة بحاجة إلى مدرس لتعليم اللغة العربية، وقد اتصل أحد أصدقاء والدنا به. وسأله إذا كان يرغب في السفر إلى يافا لِيُعَلِّمَ في تلك المدرسة براتبٍ شهري مقبول، فوافق والدنا على الفور، لأن الراتب الذي كان سيناله يكفي ليؤمِّن لنا عَيْشاً كريماً، لذلك أعددنا العدة وتركنا بيتنا الذي وُلِدْنا فيه وسافرنا إلى يافا..

في يافا بدأنا حياة جديدة واضْطَرَّتْنا الظروف لأن نكون أنا ووالدكما في مدرستَيْن منفصلتَيْن..

في البداية كان الأمر صعباً، لأننا تعودنا دوماً أن نكون في مدرسة واحدة، ولكن بعد مضي وقتٍ، اعتدنا على هذا الأمر..

في ذلك الوقت بدأت الأحوال تسوء في فلسطين، فلسطين كما تعلمون أرضٌ عربيةٌ، وسكانها الأصليون من العرب، وكان فيها أَقَلِّيَّةٌ صغيرة من السُّكان اليهود.

وكانت فلسطين تحت نير الاستعمار البريطاني، وقد بدأ السكان اليهود يعدون العدة للاستيلاء على الحكم بعد

رحيل البريطانيين، ولكن ذلك كان صعباً لسببيْن: أولاً لقلة عدد السكان اليهود بالنسبة إلى العرب، وثانياً لضيق الأمكنة التي يسكنونها أو التي يمتلكونها، ولذلك بدأ اليهود الأوروبيون يتوافدون على فلسطين بما سُمي « بالهجرة اليهودية إلى فلسطين ».

ثم بدأ هؤلاء اليهود الأوروبيون بمساعدة اليهود الفلسطينيين بالاستيلاء على الأراضي العربية بعدة طرق، فهم كانوا يحاولون إغراء السكان العرب ببيع أراضيهم، وعندما يُخفقون في ذلك كانوا يقومون بغارات إرهابية على القرى الآمنة فيقتلون السكان العُزَّل بما فيهم الأطفال، لكي يجبروهم على ترك أراضيهم..

في أحد الأيام نظمت مدرستُنا رحلةً إلى سهول يافا ذاتِ البساتين المزروعة بالخضار وأشجار البرتقال المشهور، وكان برنامج الرحلة يقضي بأن نقيم مخيَّماً في أحد السهول، وأن نزور القرى المجاورة لكي نتعرف على حياة القرية، وهكذا كان، إذ استأجرتْ إدارة المدرسة



سيارة لنقلنا إلى هناك على أن تأتي بعد يومين لتعيدنا إلى يافا.. وقد مضى اليوم الأول من الرحلة على خير..

وفي اليوم التالي ذهبتُ مع خمسة من أصحابي نركض ونلعب بين الأشجار إلى أن ابتعدنا مسافة طويلة عن المخيم، ثم جلسنا نستريح قليلاً وكانت الساعة تقارب الثانية بعد الظهر.

وبعد أن استرحنا قليلاً اقترح أحد الأصحاب أن نقوم بلعبة مبتكرة ومفيدة، وهي أن يقوم كلٌّ منا بقطف أكبر كمية من الزهور البيضاء لكي نُزَيِّنَ بها المخيم، والذي يتمكن من جمع أكبر كمية من الزُّهور تُقدم الزهور باسم صَفِّه، لأننا نحن الخمسة كنا من صفوف مختلفة..

وكان هذا النوع من الزهور متناثراً بكميات قليلة على مسافات بعيدة، فاتفقنا أن نعود بعد نصف ساعة لنجتمع تحت الشجرة الكبيرة لنحدد مَن الذي ستُقدَّم الزهور باسمه، ثم انطلقنا كلٌّ في سبيله.

٤ - اكْتِشافٌ هامّ

وتابع عمنا كلامه قائلاً:

عزمت أنا أن أبذل ما في وسعي لكي أتفوق على الجميع وأجمع أكبر كمية من الزهور، لذلك انطلقت مسرعاً أقفز من مكان إلى آخر أقطف الزهور إلى أن ابتعدت ولم أعد أرى رفاقي، وبعد ربع ساعة شعرت بالتعب وكنت قد أصبحت في فسحة أرض خاليةٍ من الأشجار، فأردت أن أستريح قليلاً، وبحثت عن مكان أسْتَظِلُّ به من حرارة الشمس اللاّهبة، ورأيت من بعيد كوخاً خَرِباً أمامه شجرةٌ وحيدة، فمشيت إليها ببطء لشدة شعوري بالحرّ، ثم جلست تحت ظِلّها..

كان الكوخ كما ذكرتُ يبدو خَرِباً ومهجوراً وكأنه لم تمتد إليه يَدٌ منذ قرون طويلة.. وحَطَّ أمامي عصفور صغير أخذت أراقبه.. كان الصمت مُخيِّماً والهدوء يَعُمُّ المكان..

بعد قليلٍ سمعت هَمْهَمَةً كما لو كان بعض الناس يتجادلون في صوت خافت، تعجبت للأمر ونظرت حولي فلم أرَ شيئاً، ظننت أني أتخيل، لكن الصوت بدا هذه المرة واضحاً..

خطر ببالي أن يكون الكوخ مأهولاً، لكني استبعدت هذا الأمر، لأن الكوخ لو كان مأهولاً لما بدت عليه هذه الطبقات الكثيفة من الغبار.

لكني عدت وقلت في نفسي: «ربّما يكون بعض اللُّصوص قد اتخذ من هذا الكوخ مخبأً بعيداً عن أعين الناس»!! وكنت قد قرأت قصةً عن لصوص يتخذون من أحد الكهوف ملجأً يخبئون فيه مسروقاتهم، ولم أتمالك نفسي، فنهضت متسللاً ووقفت أسترق النظر من نافذة الكوخ المحطمة ويا لهول ما رأيت..

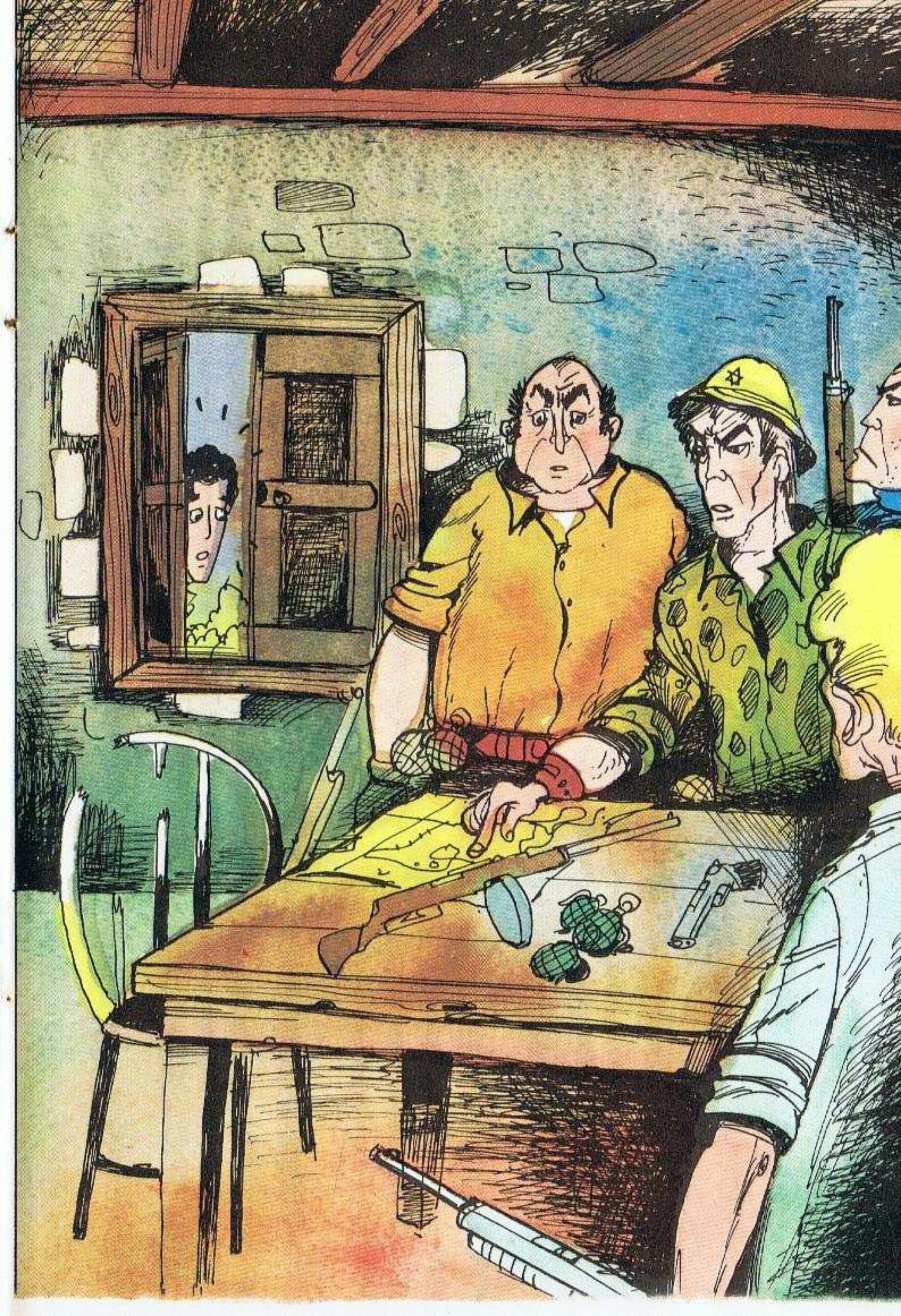
كان هناك خمسة رجال يرتدون ثياباً كاكِيَّةً كما لو كانوا جنوداً وهم يتجادلون بصوت خفيض، وكانوا مُدَجَّجين بالأسلحة..

جحظت عيناي لهذا المشهد وكادت تصدر مني صرخةٌ لو لم أتمالك نفسي.. تُرى من يكون هؤلاء وبماذا يتجادلون؟!.. حبست أنفاسي وسمعت أحدهم يقول:

– يجب أن نفاجئهم ونقتل منهم ما نستطيع حتى نُدخِل الرُّعْبَ إلى قلوبهم.. إذا عرفوا بنوايانا فستضيع المفاجأة وتفشل خطتنا.. هؤلاء العرب عنيدون.. لم يقبلوا أن يبيعونا أرضهم، إذن ليروا ما هي نتيجة عملهم!!

واقشعر جسدي وأنا أسمع ما يقول.. يا لهم من مجرمين.. لقد وضح لي الأمر بسرعة.. إنهم من العصابات اليهودية الإرهابية، ولا بد أنهم يخططون لمهاجمة إحدى القرى وقتل سكّانها وقلت في نفسي: «يا إلهي.. ما العمل؟!»..

وسمعت واحداً آخر يقول:



– إذن اتفقنا على موعد الهجوم.. الساعة الخامسة !..

أجاب الأول:

– نعم.. في الساعة الخامسة نهجم ونفاجئهم.. سيكون بانتظارنا أصدقاءٌ آخرون سَيَنْضَمّون إلينا في الطريق.. تذكروا جيداً.. الهدف من هذه الغارة هي إدخال الرعب إلى قلوب الأهالي حتى يتركوا القرية.. اقتلوا كلَّ من تجدونه في طريقِكم.. الأطفال والنساء.. الجميع.

وسأل آخر:

– ولكن هل أنت متأكد من أنهم لن يعرفوا بهذه الغارة؟!.. إذا عرفوا فسيكونون بانتظارنا وسنفشل ويقضون علينا جميعاً!!.

أجاب الأول الذي بدا أنه كان زعيم المجموعة:

– لقد احتطت للأمر.. وضعت رجلاً في التلة المشرفة على القرية.. إذا لاحظ أيَّةَ تحركات مُريبَة في القرية سيخبرنا بذلك بواسطة جهاز اللاسلكي الذي معه..

ولم أتمكن من البقاء لسماع الحديث.. كان قلبي يطرق بشدة.. يا إلّهي.. هناك مذبحة سوف تقع في هذه القرية العربية الآمنة وأنا الوحيد الذي يعلم بهذا الأمر.. واختلط عليَّ الأمر وأخذت أصلي وأقول لنفسي: «يا إلّهي ساعدني.. أرشدني إلى ما يجب أن أفعله»..

أخيراً عزمت على أن أتصرف.. يجب أن أخبر أهل القرية بالأمر.. هناك أطفال سيموتون إذا لم أفعل ذلك.. ونظرت إلى ساعتي.. كانت تشير إلى الثالثة.. هذا يعني أنه بقي أمامي ساعتان فقط.. لكني لا أعرف هذه القرية المقصودة.. وقرَّرتُ أن أذهب أولاً لأجتمع برفاقي، فهم من أهالي المنطقة، وربما احتجت إلى مساعدتهم..

لم أفكر كثيراً.. تسللت بهدوء مبتعداً عن الكوخ مسافة عشرين متراً ثم انطلقت أعدو، لم أعلم من أين أتتني هذه القوة، شعرت بنفسي وكأنني مطارد من حيوان مفترس وأن الجري هو السبيل الوحيد أمامي للحياة.

وتوقف العم قليلاً عن الكلام وقد ظهر التأثر

الشديد على وجهه بينما كان ماهر وسلمى شاخِصيْ البصر إليه بصمت مُطْبق ثم قال:

- بالرَّغم من مرور السنوات ما زلت أذكر هذه الحادثة وكأنها حصلت اليوم.. كانت أياماً عصيبة..

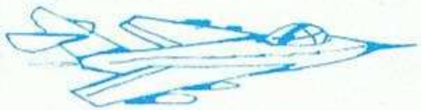
وقال ماهر:

- أرجوك يا عمي.. أكمل..

- بقيت أركض وأركض حتى كادت أنفاسي تنقطع لشدة التعب، إلى أن وصلت إلى الشجرة التي اتفقنا أنا وأصحابي أن نلتقي عندها. وهناك وجدت الأصحاب وقد نفد صبرهم لطول غيابي وكادوا ينصرفون واستغربوا رؤيتي بهذا الشكل وأمارات الرعب على وجهي وأنا ألهث، وأسرعوا نحوي مستفهمين عن الأمر.. وبدأت أتكلم بسرعة بالرغم من شدة تعبي، وحكيت لهم ماذا جرى معي وماذا سمعت، وسألتهم إذا كانوا يعرفون قريةً بجانبها تلة، وقال أحد الأصحاب وكان اسمه عبد الله:

- نعم.. هناك قرية قريبة من هنا تنبسط تحت تلة

صغيرة.. إنها الوحيدة القريبة من هذه المنطقة.



٥ - مَنْعُ الكارِثَة

وتشاورنا أنا وأصحابي فيما يجب أن نفعله.. كان موعد عودتنا إلى المخيم قد حان، ولكن المسألة كانت مسألة حياة أو موت.. إذا لم نحسن التصرف فإن ضحايا بريئة ستسقط وسنحتمل وزر هذه المسؤولية في ضمائرنا طوال حياتنا، وبسرعة توصّلنا إلى قرار، سنذهب إلى القرية

ونخبر أهاليها بالأمر، وبما أن القضية حسّاسَةٌ للغاية، لأن أية غلطة نرتكبها قد تودي بحياتنا وحياة أهالي القرية، قررنا أن يكون للمجموعة قائد واحد يتوجب على الجميع تنفيذ أوامره.

واختارني الأصدقاء لهذه المهمة بالإجماع لأني أنا الذي كشفت السِّرَّ، واعتمدنا خطة حتى لا نلفت الأنظار إلينا أثناء توجهنا إلى القرية، لأنه كان يجب علينا أن نركض لكي نصل إلى القرية بسرعة قبل فوات الأوان، وقلت لأصدقائي بأننا سوف نتظاهر بأننا نركض ونلعب ونتصايح فإذا شاهدنا أحد المجرمين، ظن بأننا مجموعة من الأولاد نلعب.

وهكذا كان، جعلنا عبد الله الذي كان يعرف طريق القرية يتقدمنا وانطلقنا وراءه نسابق الريح، وبعد قليل حدث ما تَوَقَّعْناه.. شاهدت من بعيد أحد الرجال الذين كانوا في الكوخ.. كان يقف بدون سلاحه متصنعاً البراءة وهو يراقب المكان، وعندما شاهدنا نركض ساوره الشك، وشاهدته يشير بيده وهو ينظر وراءه مما يدل على

أن أصدقاءه كانوا يختبئون في مكان ما، ولذلك صحت بمرح وكأنني لم أره:

– لن تتمكن من الهرب يا عبد الله.. انتظر قليلاً وسترى أني سأسبقك.. وفهم باقي الأصدقاء كلامي، فأخذوا يتضاربون بالأيدي وهم يضحكون، ويبدو أننا تمكّنا من خداع المجرمين، إذ لاحظت أن الرجل أشار بيده إشارة أخرى وواصل طريقه.. لقد كنا فعلاً في لحظة حرجة، لو عرف المجرمون بأننا نعرف سرهم لقضوا علينا من غير شك.. لقد أنقذتنا سرعة بديهتنا من الموت المحتّم..

وهكذا بقينا نركض ونركض إلى أن وصلنا إلى مشارف القرية. وهناك أشرت للأصدقاء بالوقوف، ونظرت إلى ساعتي.. كانت تشير إلى الرابعة إلا ربعاً، وهذا يعني أن أمامنا ساعة وربعاً فقط على بَدء الهجوم المحدد، وطلبت من الأصدقاء أن ينتظروني بين الأشجار وقلت لهم: «أترون هذا البيت الأبيض هناك.. إنه لا يواجه التلة، ولذلك لن يتمكن المجرم المختبىء فوق التلة

من رؤيتي إذا أشرت لكم..

وهكذا عندما تَرَوْنَ إشارتي تتقدمون واحداً واحداً بهدوء وبطء حتى يكون تصرُفكم طبيعياً..». ونظرت أمامي، كانت القرية هادئة وخالية إلا من بعض الصِبْية الصغار يلعبون، لأنه كان وقت القيلولة حيث يستريح القرويون في بيوتهم بعد تناول الغداء.. وأخذت نفساً عميقاً وتقدمت باتِّجاه المنزل الذي أشرت إليه.. مشيت بهدوء إلى أن وصلت إلى الباب فطرقته، وبعد قليل فتح لي الباب رجل في العقد الرابع من عمره وقال:

– أهلاً بك أيها الفتى.. ماذا تريد؟

كان الرجل مَرِحاً وبشوشاً كعادة أهل القرى، وكنت أنا ما أزال متمالكاً أعصابي فقلت له:

– أرجوك.. دعني أدخل..

وأدخلني الرجل وهو ينظر إليَّ متعجباً ثم أغلق الباب، وهنا لم أعد أتمالك أعصابي فأخذت أتكلم بسرعة وارتباك وأنا أرتجف، وشرحت له القصة وما أن انتهيت حتى قال:

– يا ربي رحمتك!!.. يجب أن نخبر كل رجال القرية ليأخذوا أسلحتهم ويكونوا على استعداد لملاقاة هؤلاء الأوغاد..

ولكني ذكرته بالرجل الواقف في أعلى التلة والذي يراقب الحركة في القرية وقلت له:

– إذا حدَثت في القرية أية حركة غير عادية فإنه سيشك في الأمر ويخبر أصدقاءه فيؤجِّلون الهجوم..

وأكمل الرجل كلامه قائلاً:

– ويعودون لمهاجمتنا مرة أخرى على حين غرة وتنجح خُطَّتُهم..

ثم نظر القروي إلى الأرض واجماً مذهولاً...

– يجب أن نجعلهم يقومون بهجومهم في الموعد المحدد لكي نكون مستعدين لهم فنلقنهم درساً لن ينسوه في حياتهم..

وجلسنا نفكر ونحن نشعر بالقنوط واليأس.. الوقت يمر سريعاً ويجب أن نقوم بعمل ما لننبه أهالي القرية ليكونوا مستعدين، وفجأة خطرت لي فكرة وقلت

لنفسي: «لماذا لا أستعين برفاقي ونخبر رجال القرية واحداً واحداً كلٌّ في بيته؟!. بهذه الطريقة نخدع المجرمين ولا ندعهم يلاحظون أية حركة غير عادية في القرية..»

وسألتُ الرجل:

- كم هو عدد بيوت القرية؟

أجاب:

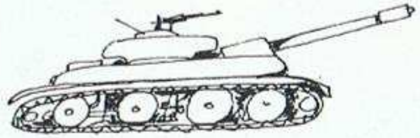
- حوالي ثلاثين بيتاً.. لماذا؟

- اسمع.. عندي خطة.. سأتنكر بثياب أهل القرى وأذهب إلى رفاقي المختبئين بين الأشجار فأطلب إليهم أن يذهب كل واحد منهم إلى بيت من بيوت القرية لكي يخبره بالأمر، ومن كل بيت يذهب رسول آخر إلى بيت آخر وهكذا إلى أن يصبح الجميع على علم بالأمر.. إذا تم الأمر بنظام وهدوء فلن يلاحظ المجرمون أيَّ شيء غير عادي..

وصمت الرجل قليلاً محاولاً فهم تفاصيل خطتي وقال:

- يبدو لي أنه التصرف الوحيد المعقول الذي يمكن

أن نقوم به.. جزاك الله خيراً أيها الفتى.. هيا بنا... سأعطيك ثياب ابني وحماراً تمتطيه فيظنون بأنك ذاهب إلى الغابة لجمع بعض الأخشاب..



٦- بِدايَةُ الخُطَّة

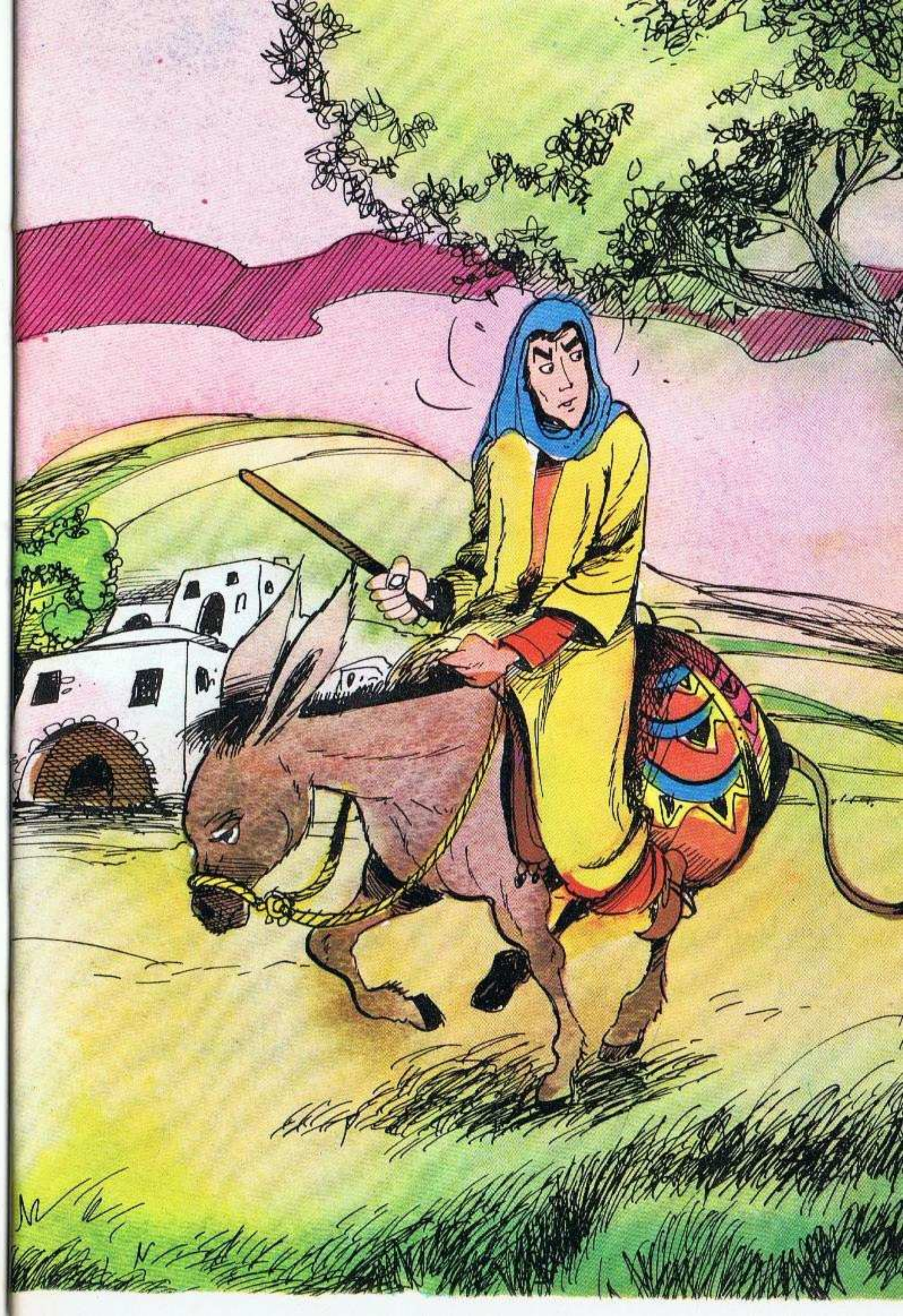
وأعطاني الرجل ثياب ابنه القروية فارتديتها على عجلٍ، وامتطيت حماراً كان مربوطاً بجانب البيت وتوجهت إلى الغابة على مهل.. كانت الساعة تشير إلى

الرابعة والربع.. لم يبق أمامنا سوى ثلاثة أرباع الساعة..

ما إن وصلتُ إلى الأشجار حتى ناديت رفاقي الذين دهشوا لرؤيتي في هذه الملابس ثم أطلعتهم على تفاصيل الخُطة...

وهكذا كان.. بعد قليل انطلق أحد الأصدقاء باتجاه القرية التي بدأت الحياة تدب فيها بعد أن انتهى وقت القيلولة.. ثم تلاه آخر بعد خمس دقائق ولكن من مكان يبعد قليلاً عن المكان الذي انطلق منه الأول.

وهكذا إلى أن أتى دوري، فجمعت بعض الأغصان اليابسة وخرجت من بين الأشجار متجهاً إلى القرية وكأن شيئاً لم يكن، وتوجهت إلى أحد المنازل حيث أخبرت أصحابه بالقصة، وما إن قاربت الساعة الخامسة حتى أصبحت كلُّ القرية على علمٍ بالمكيدة، ووقف رجالها كلٌّ في منزله ومعه سلاحه بانتظار مجيء المجرمين، في حين خلَتِ الطرقات إلا من بعض الحيوانات الشاردة والكلاب الضّالَّة...



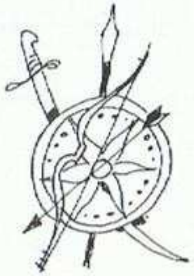
وتوقف العم أنور قليلاً عن الكلام ليسترد أنفاسه ثم استأنف حديثه:

– عند الخامسة تماماً سمعنا أول طلقة، ووقفتُ أمام النافذة أحاول أن أستطلع ما يجري..

انْقَضَّ المجرمون على القرية من عدة جهات وهم يطلقون نيران أسلحتهم، وكانت المفاجأة التي لم يتوقعوها، إذ انصبَّت عليهم النيران من كل ناحية وكأن أبواب الجحيم قد فُتحت، وكان عددُهم يُقَدَّرُ بحوالي العشرين رجلاً، ورأيتهم يسقطون على الأرض صرعى برصاص الأهالي الذين هَبّوا للدفاع عن أنفسهم.

وما هي إلا خمس دقائق حتى انتهت المعركة وتمكن الأهالى من القضاء على جميع المهاجمين من غير أن يُصابَ أي واحد منهم بأذى.. كان منظراً رهيباً تقشعر له الأبدان، ووقفت أنا أمام النافذة أشاهد ما يجري أمامي وكأنني في حُلم مخيف وقلت: «يا إلَهي.. لو تمكن المجرمون من النجاح في خطتهم لقضوا على جميع سكان القرية»..

وأخذت أحمد الله وأشكره على نجاة هؤلاء الأبرياء من المكيدة الدموية التي دبرها لهم العدو الغادر..



٧ – الَجيْشُ سياج الْوَطَن

كانت هذه الحادثة نقطة تحول في حياتي.. فقد علمتني أشياء كثيرة، علمتني أن الوطن يحتاج إلى سواعد قوية لحمايته، وعلمتني أن الدفاع عن الوطن والموت في سبيله واجب كل إنسان، لأن ذلك في النهاية يكون لخير الوطن والمجتمع، لقد أطلقوا عليَّ فيما بعد اسم «القائد الصغير»،

وكان ذلك يحرجني ويسبب لي الارتباك لأنني عندما قمت بهذا العمل مع أصدقائي، لم نكن نفكر بأننا نؤدي عملاً بطولياً نستحق عليه الشكر والثناء..

كلُّ همنا كان أن نحمي هؤلاء المواطنين العرب الأبرياء من كيد العدو وغدره، ولم نفكر حينئذٍ بأننا نخاطر بحياتنا ونواجه الموت..

وصمت العم وشرد ببصره وكأنه يحاول استرجاع هذه الذكريات، وقالت سلمى:

– أعتقد أن هذه الحادثة قد أثَّرت عليك أيضاً فجعلتك تختار حياة الجُنْدِيَّةِ فيما بعد..

– هذا صحيح يا سلمى.. قبل هذه الحادثة لم أكن أدرك معنى أن يكون للوطن جيش قوي يحميه من الأعداء.. كنت أحلم دوماً بأن أُصبح أستاذاً جامعياً وباحثاً ذا شهرة عالمية لكي أرفع اسم وطني وأساهم في تقدّمه.. لكني عرفت أن الوطن العظيم، يحتاج إلى قوة لتحميه فالعدو موجود دائماً في الحرب والسلم وهو ينتظر الفرصة التي يصبح فيها الوطن ضعيفاً لِيَنْقَضَّ عليه..

وسألت سلمى:

– ولكن إذا كان وطننا مسالماً ولا يعتدي على أحد.. ألا يكفيه هذا شر الأعداء؟!

– طبعاً كلا.. افرضي أنك أنت إنسانة مسالمة ولا تعتدين على أحد ولا توقعين نفسك في مآزق.. هل تظنين أنك تستطيعين أن تعيشي في سلام، من يضمن لك مثلاً بأن بيتك لن يُسرق؟!.. اللُّصوص دائماً موجودون في كل مكان، ولو لم تكن هناك قوة تحميك وتخيف اللصوص لما تمكنتِ من أن تعيشي مطمئنة.. وتلك القوة التي تحميكِ هي الشرطة.. نفس الشيء يطبق على الأوطان.. يجب أن يكون للوطن جيش قوي ليحميه ويصد عنه الطامعين.. سأعطيكِ مثلاً.. عندما كان الوطن العربي في أوج حضارته وازدهاره في العصرين الأموي والعباسي، كانت لَدَيْه جيوش قوية وعظيمة لحماية هذه الحضارة وهذا الازدهار، ولكن عندما ضَعُفَ الوطن العربي تكالبت عليه قوى الأعداء، وأتى الاستعمار فقضى على كل معالم الحضارة والازدهار التي كانت في بلادنا،

فأصبحنا من البلاد الفقيرة والمتأخرة بعد أن كنا سادة العالم..

وسأل ماهر:

- ومن الذي يقود الجيوش.. هل يجب أن يكون للجيش قائد واحد أم عدة قوّاد؟

- إن لكل جيش قائداً واحداً يكون مسؤولاً عنه مسؤولية تامة.. القائد يجب أن يتمتع بصفات عديدة، منها الحكمة وحسن التقدير ورسم الخطط الحربية.. وهذه صفات لا تتوفر لكل إنسان..

- وهل كان نابليون بونابرت يتمتع بكل هذه الصفات؟!

- ولماذا تسألني يا عزيزي عن نابليون بونابرت ولا تسألني عن القادة العرب العِظام.. لماذا لا تسألني عن خالد بن الوليد وطارق بن زياد وصلاح الدين الأيوبي؟!.

لقد كانوا رجالاً عباقرة خَلَّدوا اسمهم في التاريخ.. حتى أعداؤهم أنفسهم اعترفوا بمقدرتهم

الفذَّة..

وقال ماهر متباهياً:

- أنا عندما أكبر سأصبح قائداً عظيماً مثل خالد ابن الوليد.. وأنت يا عمي.. هل كنت قائداً في الجيش؟

وضحك العم وقال:

- كلا يا عزيزي.. لم أكن قائداً في الجيش.. كنت ضابطاً وكل ضابط يعتبر قائداً لرجاله.. إن الجنودَ مُلْزَمون بتنفيذ أوامر ضباطهم..

وقال ماهر متسائلاً:

- قال لنا والدي إن كل ضابط أو عسكري يجب أن ينفّذ أوامر الشخص الذي يكون أعلى منه رتبة.. إني أعتقد أن هذا يسبب الفوضى.. فربما أعطى الضابط لجنوده أوامر مخالفة لأوامر من هو أعلى منه رتبة..

- هذا مستحيل يا عزيزي ماهر.. هناك أوامر رئيسية يعطيها قائد الجيش وهو بنفسه يختارها،

وكل الأوامر التي يصدرها باقي الضباط على جميع رتبهم يجب أن تتناسق وتخدم الأوامر الرئيسية التي أصدرها قائد الجيش..

وصمت ماهر قليلاً وهو يفكر ثم قال:

– لم أفهم يا عمي.. تبدو لي المسألة معقَّدة..

ضحك العم وهو يُرَبِّتُ على كتفه وقال:

– بالعكس.. إنها مسألة بسيطة جداً.. سأعطيك مثلاً.. إفرض أن قائدَ الجيش قد أعطى أمراً أثناء الحرب بالاستيلاء على أحد المواقع.. إنه يرسم الخطة بمساعدة كبار الضباط، ثم يختار الفرق العسكرية التي ستقوم باحتلال الموقع..

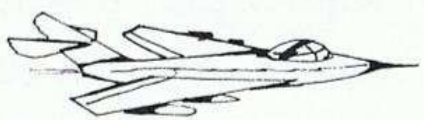
إن كل قائد فرقة له أن يختار الطريقة التي يراها مناسبة للقيام بهذا العمل، طبعاً بالاتفاق مع باقي قادة الفرق.. فربما يختار قائد الفرقة أن يرسل بعض الرجال لكي يتسللوا وراء مواقع العدو ليقوموا بتخريب المنشآت قبل القيام بالهجوم، أو ربما يرتأي القيام بهجوم عام وشامل

بمساعدة الطيران أو المدفعية، ولكن لا يمكنه أن يقوم باحتلال موقع آخر مثلاً لأن قيادته لم تأمره بذلك.

وهكذا ترى أن كل ما يقوم به قائد الفرقة العسكرية يجب أن يَخدم الخُطة العسكرية التي أمرته بها قيادته..

– ألا يتدخل قائد الجيش في هذه التفاصيل الصغيرة؟!

– في بعض الأحيان قد يتدخل قائد الجيش مع كبار معاونيه في رسم أدق التفاصيل، وفي بعض الأحيان يترك هذا الأمر للضباط، كل ذلك يعود إلى تقديره هو.. إن كل ما ذكرته لك هو شيء تقريبي حتى أُسهِّل لك تَفَهُّمَ الأمور...



٨- البَقَاءُ لِلأَصْلَح

وساد الصمت قليلاً ثم قالت سلمى:

- أتعرف يا عمي.. إن ما قلته الآن يبدو لي بعض الشيء غريباً.. لقد تعلمنا في المدرسة أن الإنسان قد تطور ولم يعد هذا المخلوق المتوحش الذي يعتدي على الأضعف منه، وها أنت تأتي لتقول لنا العكس.. أنت تقول إن الإنسان إذا لم يكن قوياً فإنه لن يتمكن من العيش لأن الأقوى منه سيأتي ويتغلب عليه..

وابتسم العم وهو يعبث بشاربيه وقال:

- أنتِ ذكية يا سلمى.. هذا أمر يجب أن يعرفه كل إنسان.. إن قانون «البقاء للأصلح» ما زال سارياً حتى الآن للأسف.

وقاطعه ماهر متسائلاً:

- ماذا يعني «البقاء للأصلح» يا عماه؟!

- سأشرح لك.. منذ نشوء الحياة على كوكب الأرض، ظهر قانون «البقاء للأصلح»! إنه ليس قانوناً بمعنى الكلمة ولكنه الطريقة التي تميزت بها الحياة على وجه الأرض.

منذ أقدم الأزمنة، مثلاً نحن نعرف أنه توجد حيوانات قد انقرضت ولم تعد موجودة مثل الديناصور الذي نشاهد صوره في الكتب أو في الأفلام الخرافية.. لماذا انقرض هذا الحيوان بينما بقيت حيوانات أخرى لم تنقرض؟!

- لقد انقرض حيوان الديناصور لأنه لم يعد يتمكن من العيش بعد أن تطورت ظروف الحياة على الأرض، أما الحيوانات الأخرى التي بقيت فإنها كانت أصلحَ منه في تحمُّلها لهذه الظروف..

يمكنني أن أعطيكم أمثلةً عديدة، مثلاً عندما تلد أنثى الغزال البرّي، فإنها تقوم حالاً بعد أن تلد

وتسير في الغابة، فإذا كان المولود قوياً قوةً كافية، يقف على أقدامه ويلحق بأمه، أما إذا لم يكن بهذه القوة فإنها تتركه من غير أن تحمله أو تحاول مساعدته..

قد نقول إن هذا التصرف فيه الكثير من القسوة والوحشية، ولكن لو فكرنا قليلاً لأدركنا مغزى هذا التصرف الذي تقوم به الأم بشكل غريزي..

إن الغزال حيوان ضعيف وسلاحه الوحيد للنجاة من الحيوانات المفترسة: هو الهرب منها، ولذلك نرى أن الغزال يعتبر من أسرع الحيوانات تقريباً، فإذا ساعدت أنثى الغزال صغيرها الضعيف، فإنه سيكون عبئاً عليها، وعندما يواجهها حيوان مفترس فإنها ستنشغل بمساعدة صغيرها وتكون النتيجة موتها وموتَ الصغير بين براثن هذا الحيوان.

أما إذا كان صغيرُها قوياً فإنها ستهرب وهي

مطمئنة بأن صغيرها سيتمكن من اللّحاق بها، وهكذا نرى أنه في عالم الغزلان يكون البقاء للأصلح الذي يكون قوياً ويتمكن من الركض بسرعة..

لقد جاء في القرآن الكريم « .. أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » أي الصالحون لوراثتها كما فسرها عدد من كبار المفسرين..

وسكت العم قليلاً ثم قال:

– إن الإنسان الصالح للبقاء ليس الإنسان الذي يتميز بالقوة الجسدية كما هي الحال بالنسبة إلى الحيوان، لأنه يعتبر مخلوقاً ضعيفاً أمام باقي المخلوقات.. تصور أن القطة الصغيرة يمكنها أن تجري أسرع من الإنسان.. إلا أنه أصبح أصلح المخلوقات للعيش على الأرض لأنه تميز عن كل المخلوقات بذكائه، وبذلك أصبح أقوى منها وسيطر عليها...

وسأل ماهر متعجباً:

- وهل الذكاء قوة؟!

- إن الذكـاء هو أعظم قوة أعطاها الله للإنسان، ولذلك أنشأ الإنسان المدارس والجامعات لتقوية الفكر والذكاء واكتساب المعرفة..

إن الإنسان الذكي المتعلم الذي يعرف كيف يستعمل عقله يعتبر إنساناً قوياً، وأفضل دليل على كلامي أن الإنسان المتعلم والذكي تُتاح له الفرصة ليعيش أفضل من غيره، وهنا نعود إلى القانون الذي تكلمنا عنه، أي قانون «البقاء للأصلح»: في عالم الحيوان يكون البقاء للأصلح في القوة الجسدية، أما في عالم الإنسان فإن البقاء يكون للأصلح في الذكاء والقوة العقلية..

وقال ماهر:

- ولكن يا عمي.. لنفرض أننا نعيش في الغاب حيث لا توجد قوانين لحماية الإنسان الضعيف.. إذا هاجمني شخص أكبر وأقوى مني، فإنه سيتغلب عليَّ مهما كنتُ ذكياً!!..

- هذا غير صحيح.. لأنك إذا كنتَ ذكيًّا، فهذا يعني بأنك تعرف ضعفك، وعندها يجب أن تحتاط للأمر وتحصّن بيتك وتخترع أسلحة تعوض النقص في ضعفك، وعندها لن يتمكن الأقوى منك من التغلب عليك..

ونظر ماهر إلى عمه بدهشة وكأنه اكتشف شيئاً وقال:

- هذا صحيح.. لم يكن يخطر ببالي هذا الأمر.. الآن فهمت لماذا اخترع الإنسان الأسلحة.. لأنها تجعله أقوى من الحيوانات الأخرى!!..

- تماماً يا عزيزي.. في تاريخنا حوادث عديدة تدل على أن قوة الأسلحة التي كان يمتلكها القائد العسكري، طبعاً بالإضافة إلى ذكائه وحسن تصرفه تجعله يتغلب على خصمه مهما كان عدوه كبيراً.. الكثير من المعارك التي خاضها العرب كان العدو فيها أكبر عدداً بكثير، لكن ذكاء هؤلاء الرجال

العِظـــام وإيمانَهم بحقهم وقوةَ أسلحتهم جعلهم ينتصرون على أعدائهم..

٩ - تَطَوّرُ الجَيْش

- ثم بادرته سلمى:
- ومتى تم إنشاء أول جيش في العالم، وفي أي بلد؟!

أجاب العم:

- لا يوجد تاريخ مُعَيَّن لإنشاء أول جيش في العالم..

الجيوش العسكرية ظاهرة نشأت مع تطور المجتمعات البشرية منذ أقدم العصور.. في البداية كان الإنسان يعيش في تجمعات قَبَلية صغيرة، وكانت مهمة حماية هذه القبيلة الصغيرة تُوكَّلُ إلى الذكور الشبان الذين كانوا يخضعون لأوامر رئيس القبيلة مباشرة.

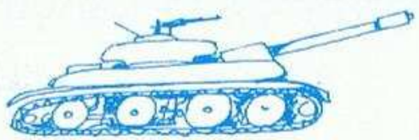
فيما بعد، عندما أصبحت التجمعات البشرية أكثر عدداً، وعندما بدأ الإنسان في بناء القرى الزراعية ظهر

الشكل البدائي الأول للجيش العسكري، حيث قُسّم الشبان من الذكور إلى قسمين، المحاربين والعاديين، حيث كان على الشاب الذي يرغب بأن يكون محارباً أن يؤدي امتحاناً عسيراً يتحمل فيه الكثير من الآلام لكي يبرهن على جدارته.

وما تزال بعض هذه العادات موجودة لدى القبائل البدائية الموجودة في إفريقيا وفي أميركا الجنوبية.

وكان المحاربون يُعتبرون رجالَ زعيم القبيلة وحاشيتَه المقرَّبة، وكان عملهم الوحيد حمايةَ الزعيم والقبيلة وَشَنّ الغارات على القبائل الأخرى..

بعد ذلك أصبح للمحاربين زعيم أيضاً وهو ما يمكن أن نعتبره النسخة البدائية لقائد الجيش. وبعد أن ظهرت المدن الكبيرة ظهرت معها الجيوش النظامية الكبيرة، وتطورت إلى أن أصبحت على ما هي عليه الآن..



١٠- قوانين الجيش

- وهل تطورت قوانين الجيش مع تطوره أيضاً؟
- طبعاً يا عزيزتي.. لقد تطورت تطوراً كبيراً.. مثلاً حتى نهاية القرن السابع عشر كان يحق للجنود الذين يستولون على مدينة أن يفعلوا بها ما يشاؤون، فيقتلون وينهبون وكأن ذلك حقٌ من حقوقهم..

العرب كانوا السَبّاقين في وضع القوانين العسكرية التي تجعل حياة الجندي وتصرفاته أكثر إنسانية وأخلاقية، فأثناء الفتوحات الإسلامية كانت تُعْطَى أوامر مشدَّدة من قِبَل قادة الجيوش العربية إلى جنودهم بعدم إيذاء السكان المدنيين والمحافظة على أرواحهم وممتلكاتهم..

كان واجبهم ينحصر فقط في مقاتلة الجنود والمسلحين الذين يقاومونهم، وكانوا يأسرون الجنود المستسلمين ولا يقتلونهم على عكس ما كان يفعل قادة الجيوش الأجنبية.. هذه المبادىء الأساسية التي وضعها العرب طبّقتها جيوش العالم فيما بعد..

- أعطنا فكرة عن القوانين التي تحدِّد تصرفات الجندي أثناء الحرب..
- هناك قوانين عديدة ولكن أهمها، أن على الجندي أن يطيع أوامر قائده طاعة عمياء، من غير أن يسأل عن السبب، ويُحظر على الجندي قتل عدوه المستسلم، إنما عليه أسره وتسليمه إلى قيادته، وإذا خالف هذا الأمر وقتل عدوه المستسلم فإنه يحال إلى المحاكمة العسكرية لينال جزاءه.

كذلك إذا أُسر الجندي، عليه ألا يعطي أية معلومات للعدو ما عدا اسمه ورقمه فقط، وإذا أُسر الجندي في ملابسه العسكرية فإنه يعتبر أسيراً عسكرياً، أما إذا أُسر في ثياب مدنية فإنه يعتبر جاسوساً وينال أحكاماً قاسية جداً، قد تكون الإعدام في أغلب الأحيان، لذلك على الجندي أن يرتدي ملابسه العسكرية أثناء الحرب..

وصمت العم قليلاً ثم قال:
- والآن هل اكتفينا من هذه الأحاديث

العسكرية؟ ما رأيكما في نزهة بين الحقول بصحبة عنتر وصقر؟

وقالت سلمى:

- لقد كان حديثاً ممتعاً ومفيداً يا عمي.. لقد تعلمنا منه أشياء كثيرة لم نكن نعرفها..

وقال ماهر:

- لقد صممت أن أصبح قائداً مثلك عندما أكبر، وسأفعل كما فعل صلاح الدين الأيوبي وخالد بن الوليد..

وضحك العم مَلِيًّا وهو يقول:

- ما هذا التواضع يا ماهر؟ .. أنت تريد أن تقفز قفزةً كبيرة مرة واحدة؟ .. عليك قبل كل شيء أن تتعلم لكي تنمي عقلك وتكتسب المعرفة التي تؤهلك كي تصبح عظيماً..

وانصرف ماهر راكضاً وهو ينادي الكلبين بمرح بينما وقفت سلمى تراقب عصفوراً صغيراً يقف على شجرة، وتجول بنظرها بين الحقول الممتدة أمامها وهي تفكر بحديث عمها الشَّيِّق...

القائد الصغير



دار العلم للملايين